كلام الشهود

تقاطع نيران:
من يوميات الانتفاضة السورية

سمر يزبك

٢٠١١/٤/١٥

أيتها الأرض المدوّرة، إن قلبي الصغير كقطعة فحم منزلي، أوسع من حدودك! لا مهرب لك من غضبي وسط هذا الضجيج، والشمس المتوهجة ونحن نجتاز تلك القمم، أعرف كم أنك ضيقة!

كانت السيارة تهتز، وأنا أفكر بضيق الأرض، وصدري ينقبض. بالكاد أتنفس، صور الرجال الذين ظهروا اليوم على شاشات التلفزيون، بعد أن اقتيدوا من منازلهم في قرية البيضا التي ما تزال محاصرة بقوات الجيش، وأجهزة الأمن. الرجال جمعوا في الساحة، وبطحوهم على الأرض، ثم ربطت أيديهم بحبال بلاستيكية دقيقة تتحول إلى سكاكين في جلودهم. الصورة لا تفارق مخيلتي، ورؤوسهم مدفونة في الإسفلت وظهورهم للسماء، ذكرني هذا المشهد بفيلم «كفر قاسم» لبرهان علوية.

بعد أن مُنع الرجال من رفع رؤوسهم، ثم رُكلوا وضُربوا بشكل مبرح، وتم تعفيسهم بالأقدام، أُجبروا على ترديد هتافات مؤيدة للرئيس، قبل أن يُجبروا أيضا

سمر يزبك، كاتبة وروائية من سورية.

ًعلى الركوب في شاحنات، قادتهم إلى مكان مجهول، اختفوا فيه.

الخبر يُظهر في التلفزيون الرسمي أنهم خونة، وأن بحوزتهم سلاح، ثم يقولون بعد ذلك أن هذه الصور مفبركة، بعد أن ظهرت كمقطع فيديو. سيقول لي صديق من بانياس، بعد أيام، أن ما حدث لم يكن كذلك، وأن بعض الرجال خرجوا للتظاهر، ورددوا هتافات سلمية عن الحريات بلا أي شعارات طائفية، عندما ظهرت مجموعات أطلقت الرصاص، وقتلت العديد منهم. ثم حدث ما حدث، وحوصرت البلدة، وقُتل بعض رجالها، واقتيد الباقي إلى السجون.

لم أستطع دخول بانياس، لرؤية ما يحدث على أرض الواقع اليوم. حاولت الدخول من طرق عدة، لكن الأمر كان مستحيلاً، حتى عندما تجاوزنا بعض المباني لدخول المدينة والسوق القديم. كانت هناك حواجز منعتنا من أجل سلامتنا، اعتمدت على روايات الناس، والأصدقاء وعلى الصور الحقيقية التي التُقطت. كانت هذه إحداها: صورة لرجال منبطحين ومكبلين، رجالٌ "مذلون مهانون"، هذا اسم رواية لدوستوفسكي. أعود إلى الروايات كمستقري، هي عشقي المطلق.

لم يُعتقل الرجال فقط بهذه الطريقة، بل اقتُحمت البيوت، واقتيد الأطفال بالعشرات أيضاً إلى السجون. الجيش والأمن كان يقوم بتمشيط البيضا، وهي بلا كهرباء منذ أيام، وبلا مؤن، ممنوع الدخول إليها، والخروج منها ممنوع. رجالها اعتُقلوا مع الأطفال، والنساء حسب ما سمعت اليوم، ومن ثم تأكدت، قمن بالاعتصام مع أطفالهن أمام الطريق الدولية مطالبات بإطلاق سلاح رجالهن.

نعم هذا أكيد، ولن يستطيع التلفزيون الرسمي تكذيبه، فقد ذهبت وتأكدت، وكانت الطريق مقطوعة، وتوقفت الحافلات بالعشرات أمامهن. كانت هناك أخبار تصل عن جرحى يتمّ تعطيل إسعافهم، والنساء تصرخ مع الأطفال. ستظهر سيدة على شاشات التلفزة، بعد ذلك بيوم، وهي تصرخ بقوة، وتقول: نحنا أهل بانياس! نحنا أهل الحرية! وتصرخ من ورائها النساء: حرية! حرية! النساء كلهن محجبات.

عندما سألت أحد أفراد الجيش عن القصة، أجاب مؤكداً، ولم يعلق بحرف، وكان يبدو مهموماً، اقتربت وحاولت معرفة الأخبار منه، كان يبدو منشغلاً بشيء

ما. رجل في الأربعين اقترب مني على الحاجز الذي يصل مدينة بانياس بالقرى الجبلية، ويتفرع منه إلى الطريق الدولية، سيقول لي بعد حين أنه ضابط من الشرطة. فعلا كان يرتدي ثياب الشرطة السوداء، وسيضيف أن الناس خائفة من المسلحين. لم يعلق بحرف عندما قلت له: أشك أن رجال قرية البيضا كانوا يحملون كل هذا السلاح، وأضفت: واعتقالهم وقتلهم كان وحشياً؟ لم يردّ، وأشار لي بالانصراف.

كانت السيارة قربي، ففتح الباب وقال بتهذيب شديد: أرجوك يا ست اذهبي من هنا، وأدار ظهره. كان الغضب واضحاً على وجهه، عرفت ذلك لأني كنت غاضبة أيضاً. قال لنا رجل يقف على مقربة منه بأن أخ هذا الضابط قتل في الحافلة التي استهدفت رجال الجيش من يومين، وقُتل فيها مجموعة من الضباط والجنود. قلت للرجل، ولكن هناك من قال إن الرجال الذين يقتلون الجيش والناس وبعض رجال الأمن، ويتحركون على شكل عصابات، هم أناس معروفون لأهالي بانياس؟

قال: نعم. ولكن من يردد ذلك؟ قلت أنا قرأت عن ذلك. فأضاف، وكان ذا لحية مشذبة، نحيلاً، وقامته طويلة: الكل يعرفهم، ولكن الكل خائفون، قلت: مم؟ قال العلويون خائفون مما يشاع بينهم، أنا بيتي بين العلويين وفي حي علوي وأخاف أن أعود، هناك بعض الأحياء التي يسكنها العلويون والسنة معاً، وفي كل لحظة ستشتعل النار بينهم.

قلت: ولكن هناك من يروع الناس ويشعل الفتنة بينهم. قال: نعم هناك من يروع، المشكلة أنهم نجحوا في ذلك، وذكر لي أسماء بعض العائلات من المسلحين الذين يروعون الناس ويعملون عند أحد أقرباء الرئيس. وفعلا قرأت بعضها على النت، مع صورهم أيضاً، وأضاف اسمين منهم. قال: هؤلاء يعرفهم الجميع، ولكن من يتجرأ ويقول إنهم من يقود عمليات القتل؟

استغربت جرأته أمامي، وعرفت السبب، كان يترك البلد. ظهرت سيارة بعد قليل، وانتبهت فجأة أنه يقف إلى جانب حقيبة كبيرة، قلت شكراً لك. قال: ما رح تلاقي حدا يخبرك شي. الناس ما عندها تخبر أي شي غير عن الخوف، ثم أن كثيرين يصدقون قصة المندسين والخونة. صمت دقائق، ثم عرّفني بنفسه، كان أستاذ

لغة عربية، ويسافر من بانياس إلى اليونان. قلت له: الكل يعرف هذه القصص على النت.

أضاف بيأس شديد: ومين قلك إنو الناس هون كلها بتشوف النت؟ ثم ركب السيارة وغاب. عدت إلى السائق المتململ، وقلت له، سنحاول الدخول من مكان أخر، ممكن أن نصل إلى النساء المعتصمات، صرخ بأنه سيتركني هنا إن لم أذهب، لأن القناصة تتوزع تحت قلعة المرقب وفي كل الجهات، وأن الكثيرين من المدنيين ورجال الأمن ورجال الجيش قُتلوا برصاصهم.

كان الضابط الحزين الغاضب قد ضاق ذرعا برؤيتي، فاتجه إلينا، وصرخ: هي اذهبي من هنا! قلت: لم تصرخ؟ قال: لأن الناس هنا تموت، وقد تتجه رصاصة إليك الآن. قلت: مين هدون القناصة؟ قال: شو بيعرفني أنا، القناصة هدون عم يقتلوا الناس ورجال الأمن، والجيش أيضاً. قلت: القناصة هم أنفسهم جماعة الشبيحة؟ قال: أي شبيحة؟ قلت: ومين ما بيعرف الشبيحة! ثم غادرت خائفة، وبقي هو واقفاً في مكانه ينظر إلي، والغضب يملؤه.

رجعنا إلى الطريق الدولية استعداداً للعودة إلى مدينة جبلة. كانت بانياس وراءنا.

قبل أربع وعشرين ساعة، كنا قبل بانياس، وكان الأمر مختلفاً جداً، كان العبور الأول لنا عبر الجبال. علينا الالتفاف على المدينة لأن الطريق مقطوعة، والجيش يحاصرها من الداخل والخارج. دخلنا عبر قرى الجبال، ولم أقتنع بما قاله حاجز الشرطة عن خطر في عبور الطريق الدولية، قلت له: لماذا؟ قال القناصة تحت قلعة المرقب والجيش هناك لحماية الناس، قلت: طيب خلينا نروح، إذا الجيش هناك ليحمينا. قال: الطريق مقطوع، عودوا إلى الشام، أو اعبروا الجبال.

عبر الجبال، كانت هناك بهجة خجولة تنتظرنا، وكان ثمة اختلاف بانفجار أخضر في الجبال والوديان، وعندما نتحرر من الانفجار تبرز تربة بطبقات متفاوتة الحمرة. قرى يقطنها مسيحيون وعلويون، وتحتها قرى من الطائفة السنية، أقرب إلى البحر. بعد أن تجاوزنا قرى ضهر صفرا وقرقفتي، كانت قرية البيضا تحتنا مباشرة. المحطة الحرارية، المصفاة، ووديان عميقة.

اللجان الشعبية التي يشكلها قواد الفرق الحزبية البعثية تنتشر مع رجال الأمن والعسكر. صبي في الخامسة، وقف حاملاً عصا خشبية في ظهره كبندقية، بشرته محروقة، لكن عينيه تبرقان، وغرته العسلية طويلة تحجب جبينه، كان يبدو كلوحة. ابتسمت، وأعطيته هويتي، نظر إليها بصرامة، ثم ردها إلي. وأشار بالمتابعة. قلت مغالبة ابتسامتي: أنت مع مين؟ رد: أنا معك! كانت ضحكتي الأولى منذ أيام طويلة، بعد أن بدأ الدم يسفك في المدن والقرى، ضحكت بصوت عالٍ، غمزت له بعيني، ومرت السيارة.

الحواجز التي تعكس خوف الأهالي، لم تكن تشكل عبئا بالنسبة لي، فأنا أفهم خوفهم وأصدق ما رووه لي عن العصابات المسلحة التي خوّفتهم، وأطلقت النيران في وديانهم وقممهم. لكن السؤال من هي تلك العصابات؟ قلت لأحد القرويين، وأغلبهم من البسطاء والفقراء والمذعورين: أنا أظن أن القصة ليست كما يقال.

نظر إلي بعينين مدهوشتين، وضيّفني كأساً من «المتة» بعد أن تركت السيارة وجلست معه أمام مصطبة بيته: لأ يا بنتي إنتي ما بتعرفي، هودي بدهن يقتلونا.. الجيش هون ليحمينا. قلت: بس إنتو بتحموا حالكن. قال: معليش الجيش بالخطوط الأمامية ونحنا بالخطوط الخلفية. قلت له: وين النسوان، وليش ما في حركة بالضيعة؟ قال، بعد أن خبط على جنبه بيده المتورمة العروق: نحنا منحمي الضيعة هون ومنخاف على نسوانّا. قلت له: سمعت أن من يقتل الناس ويروعها هم من الشبيحة، وصمت. سكت وقال: يكونوا مين ما كانوا، والله ما بيقربوا على بيوتنا إلا على جثتنا.

كان أهالي القرى في حالة استنفار وقلق، ومع وجود حواجز التفتيش. كانت الجبال تبدو وكأنها في حالة حرب، وهذا الأمر لا يتجلى بوضوح إلا في المنطقة التي تحيط بمدينة بانياس الآن. لكن اللجان الشعبية في غالبية قرى الساحل تسهر في الليل لحماية القرى خوفاً من العصابات.

الحواجز التي تتألف من عدة أطياف (الأمن، العسكر، الأهالي، اللجان الشعبية) كانت تفتش الناس بكثير من الاحترام والحذر. قلت لضابط، بعد اجتزنا عدة حواجز

هناك سيارة وراءنا. رأيت شابا فيها يلعب بمسدس وقد اجتاز عدة حواجز، فما فائدة كل هذا التفتيش؟

طلب الضابط مني البقاء إلى جانب الطريق، حتى مرت السيارة، التي كانت وراءنا منذ بداية طريق الجبال كان فيها أربعة شباب يلعبون بمسدساتهم وأشكالهم التي أعرفها والتي بدأت تظهر مؤخراً في دمشق. هم أنفسهم، وجوه القتلة صرت أعرفها. أوقفهم الضابط، وطلب منهم النزول. السائق لم يستجب في البداية وكاد أن يدهس العسكري، لكن الضابط أوقفه، فنزلوا بطريقة استفزازية.

إنهم هم! لدي حاسة سادسة لا تخطئ في معرفة وجوههم، بعد أن انتشروا في شوارع دمشق واللاذقية: العضلات المنفوخة، الوشوم، الصدر العريض، ثم نظرة الاستعلاء والموت. تحدث الضابط معهم، وقامت العناصر بتفتيشهم، وأحدهم رمقني بغضب، خفت، فقد أخبرت حاجزين من قبل عنهم، يبدو أنهم عرفوا بذلك. الضابط سمح لهم بالمتابعة، وأنا فوجئت. صرخت: أنتم تفتشون حتى ملفات كمبيوتري وفي حقائبي وتتركون هؤلاء المسلحين؟ قال الضابط بهدوء: امشي في طريقك مدام، هدون بمهمة أمنية.

سمعت زعيق سيارتهم، التي تشبه صياحاً، وغيمة غبار رافقت سيارتهم التي انطلقت بجنون، وتدافع الناس من أمامها حتى لا تصدمهم. صرخت: هدون مجرمين شوف اشكالهن.. ومعهم ثلاثة مسدسات! أدار ظهره، وتركني مع عناصره. العنصر الذي كاد يُدهس بسيارتهم، كان غاضباً. اقترب مني وقال: تيسري أختي، هي شغلات مالنا نحنا دخل فيها».

كانت البيضا أكثر وضوحاً من قبل. هنا سيذكر التاريخ، بعد أزمان، أن بشراً قتلت واقتيدت كبهائم إلى السجون، وأن نساءً خرجن للدفاع عن أزواجهن وأولادهن، وأن أطفالاً صرخوا وهم يُعتقلون، وأن دماءً سُفحت على الطرقات، وتركت الجثث مشرعة للهواء.

أنظر بولع إلى المكان. البيضا تحتنا مباشرة، أستطيع تخيل ما حدث! تظهر حبيبات على ذراعي، بانياس تحجبها البيوت البلاستيكية التي تمتد على طول الخط

الساحلي، وتلوث الهواء والبحر. الناس خائفة مذعورة، لم تعد تفكر في ما يحدث، صار يهمها الأمان فقط في العيش.

اختلطت الحوادث، صارت هناك قصص وإشاعات تسري بين الناس، الخوف من الذل القديم الذي عاشه العلويون، الخوف من التشرد والاضطهاد، جعلهم يقتربون من رواية النظام، وجعلهم مدفوعين وراءه بكل ما يملكون. كانوا فقراء، ويصدقون ما يقال لهم، ولم يعتادوا منذ عقود طويلة هذا الرعب. القلة منهم كانوا ضد ما يحدث من عنف وقتل، وصاروا ينبهون الناس في بانياس أن القصة لا علاقة لها بالطائفة السنية فقط، وإن خرج الإسلاميون للتظاهر، فقد خرجوا بشكل سلمي، ولم يطلقوا النار على أحد، وهم أنفسهم انضموا إليهم.

بعض من هؤلاء العلويين تعرضوا لاضطهاد مضاعف من أجهزة الأمن، قامت بتخويفهم، وشوهت سمعتهم، واعتقلت بعضهم، وهددت البعض الأخر بفضائح أخلاقية. وكانت المصيبة الكبرى، في مقاطعة أبناء طائفتهم لهم، وتخوينهم، واضطر بعضهم للخروج من بانياس تحت الضغط.

المسلحون الذي استدل عليهم بعض أهالي بانياس، وهم الذين أطلقوا النيران، وكانت فوق أبنيتهم تنتشر القناصة، تدخلوا في اعتقال أهالي البيضا. وهم من جعلوا الناس يصدقون أن هؤلاء المعتقلين هم خونة ومندسون ويريدون ذبح العلويين. ولكن الأمر لم يكن هكذا، ربما الصحيح أن ما حدث أيقظ الحس الطائفي في بانياس، وحوّلها إلى جحيم، ولكن البداية كانت من هؤلاء الشبيحة أو ما يمكن أن نسميهم بلطجية، وهم أنفسهم من صار يطلق النار على المآذن في الجامع. الكثير من الناس في بانياس رووا لي هذه الحوادث، بعد أن تركوا بيوتهم هربا من التنكيل، لأنهم حاولوا استجلاء الموقف، وهناك من بقي وسط هذه الدوامة يحاول العثور على حقيقة ما حدث.

عندما اجتزنا الحاجز الأخير، وابتعدنا عن السيارة التي تقل الرجال الأربعة المسلحين، شعرت بالأمان قليلاً.

اليوم هو «جمعة الإصرار»، قُتل فيها أكثر من ١٥ شخصاً في اللاذقية، وفي دمشق

يقطع رجال الأمن أوصال الشوارع والساحات بحواجز أمنية وعسكرية، خاصة في ساحة العباسيين، والأمن يطلق النار على المتظاهرين القادمين من جوبر بعد انضمام أهل دوما وحرستا إليهم، ويمنعهم الوصول إلى ساحة العباسيين.

وفي مدينة درعا، رغم تظاهر مئات الآلاف، لم يطلق الأمن النار على المتظاهرين. يُسقط أهالي الرستن تمثال حافظ الأسد الذي يعدّ الأضخم له في سوريا. وفي اللاذقية يحاول رجال الأمن الدخول بين المتظاهرين، وعندما يعترض المتظاهرون على وجود أسلحة معهم يقولون أنهم يحملونها للدفاع عن أنفسهم. ولكن الشباب يقبضون عليهم ويتضح أنهم من رجال الأمن يريدون الإيحاء بأن التظاهرة مسلحة. والأمن والجيش يقومون بتكسير المحلات، وتُحاصر مدينة الضمير، والأمن ينتشر فيها بكثافة. ضاحية دوما ما تزال محاصرة، والمزيد من الاعتقالات التي لا تتوقف يومياً.

الآن بانياس فارغة، الشوارع خالية، المحلات مغلقة، الكثير منها تكسرت، مبنى البلدية أحرق، ومبنى البريد. سوف يطلب الأهالي من الجيش في اليوم التالي أن ينتشر، وأن يخرج الأمن من الموضوع. وستبقى الدبابات تنتشر حول المدينة، وعناصر الجيش يتوزعون في كل شوارع المدينة. الخوف من أن تندلع المواجهات الطائفية في أي لحظة، فقد نجحوا في تحويل ما حدث إلى إيحاء بفتنة طائفية، وأن من واجب النظام قمعها، رغم أن الكثيرين من أهالي المدينة يعرفون أن الأمر لم يكن كذلك، وأن وراء ما حدث أيدياً خفية أرادات تحويل التظاهرات السلمية التي خرج بها أهالي المدينة من الجامع إلى خيانة قام بها بعض المسلحين المتآمرين مع عناصر خارجية.

ربما كان هذا هو السبب الوحيد الذي وجده النظام لتبرير قتل أبناء بانياس، ومن يقتل الجيش؟ ورجال الأمن؟ القناصة، من هم القناصة؟ الأسئلة التي أسعى لحلها، ربما فكرة من يكون وراءها قد تكون واضحة، لكن الكيفية تبدو غامضة. كل هذه الأفكار التي تأتي وتروح، وأنا أصل لمدينة جبلة يزيد غضبي وألمي ومرارتي، لكن السعادة الصغيرة التي حظيت بها بعد أن انتهت من هذه الرحلة الكابوسية بين الجبال والوصول بالأمان، جعلني أفكر أن الوقت قد حان للتفكير باستراحة. لم أكن أعرف أنها ستكون زيارتي الأخيرة لمدينة جبلة.

لقد عبرت أمام الموت الآن، وأستعد لرؤية موت جديد.

٢٠١١/٥/٤

أبدأ يومي بهذا الخبر:

«نقلاً عن مصدر طبي موثوق جداً، فإن قوات الأمن نقلت يوم السبت ١٨٢ جثة مدنية من درعا إلى مشفى تشرين في دمشق، ونقلت يوم الأحد ٦٢ جثة، أي ٢٤٢ جثة في اليومين، منهم الكثير من الأطفال، كما وصل إلى المشفى ذاته ٨١ جثة من الجيش أغلبهم مصاب بطلق ناري في ظهره».

هكذا هي البلاد...

هي الحدود الفاصلة بين البحر والصحراء والجبل والسهل، ملاءات من وجع. معلقة بحبال كشعرة دقيقة ومثبتة من نهايتها بأعمدة سماوية تتلاشى في العدم.

هكذا هي البلاد...

كل قطعة أرض مفصولة عن الأخرى، ومربوطة بسكن الرب النائم. الجبال المعلقة بالأرض المفصودة، تتأرجح بصراخ عال. صراخ خافت. وخلف حجاب ساتر، ثمة أدعية واستغاثات، عيون متكومة كفقاعات صابون تتطاير وراء النوافذ. العيون لا تخاف. فقدت الخوف. عيون مفتوحة على الفراغ والجوع والغضب، لا تلمح سوى جدار قاتم يحجب الرؤية. الحجاب؛ تلك الكلمة السحرية التي نعيش وفق أصولها وفروعها هنا. الحجاب يكبر ويكبر حتى يصير بلداً.

في الجهة البحرية حيث كنت أجول منذ أيام في المدينة، قبل أن أتحول إلى كائن محاصر بموت أحبتي. قرب الدبابات خطر لي الاقتراب من جسد دبابة، وأقول جسد، لأني دائماً في طفولتي كنت، عندما أرى الدبابة في الصور والتلفزيون، أتخيلها حيواناً برمائياً، يختفي حالما نقرر أن نملأ مغطس الحمام بالمياه وندفنها فيه.

للأطفال مخيلة طازجة. أحاول جاهدة أن لا أتنازل عنها. أصاب بالدهشة دائماً. هكذا بقيت طفولتي شاهداً على الوجع. كان الحاجز العسكري غريباً، كنا نتخيل أن يكون هذا الحاجز قرب منطقة حدودية مثلاً، أو نراه في الأفلام حيث تتواجه

دولتان عدوتان. ولكن أن تكون هذه الدبابات بين البيوت، ومدافعها تتجه نحو النوافذ!

لم يخطر للجنود البائسين الذين يتحلّقون حول جسم الدبابة أني سأقترب منهم. الجنود الذين ينتظرون الموت الغامض أيضاً، مثل الناس العزل، الذين يريدون معرفة الأجوبة: من أين يأتي هؤلاء القتلة؟

قال لي أحد الجنود إنه كان سيموت برصاص قناص. قلت له: يوماً ما ستعرف، وبقيت غصة مؤلمة في حلقي. هل أقول له، أنت مشروع قتيل، أنت وكل الناس في هذه البلاد، وكل من يمشي عليها، إذا لم يمتثل لأمر رجال الأمن ورجال العائلة الحاكمة؟

أردت أن ألمس الحديد في الدبابة. وضعت يدي على جانبها، وأغمضت عيني وأنا أسمع هسهسة فائقة ونديّة. سألمس الدبابة للمرة الثانية، أصابعي ترتعش، وتنتقل برودة الحديد إلى يدي. جفلت، وفتحت عيني. كان الجندي يقف وجهاً لوجه أمامي، وينظر مذهولاً. لم أتحرك، بقيت كفي على الحديد، وضحك الجندي.

ابتعدت قليلاً، ونظرت إلى فوهة المدفع الموجهة إلى البيوت. كان الجبل يطل من الخلف بصمت، واخضرار يدعو للحياة، ويلف المكان. جبل أخضر ترابه محمرّ، وأمام البحر الأزرق كان من الممكن أن أطلّ على لوحة فائقة الروعة، لولا تلك الرعشة الباردة للحديد. ترى ما هو الحوار الذي يمكن افتراضه بين فوهة مدفع وبيت أعزل. لنجرِ حواراً: لا حوار!

ما هي سرعة الضوء المفترضة بين طلقة رصاصة، وصدر أعزل؟

سرعة مميتة!

سرعة الضوء وسرعة الموت. أمدّ كفي مرة أخرى، ويبدو أن الجندي ضاق ذرعاً بي. حاولت أن أفتح حديثاً معه. كان الشاب مرهقاً، وعيناه الحديديتان تستقران بين عينيّ. ماذا لو غزلت خيطاً الآن، كعنكبوت ورفعت هذه الدبابة كلعبة؟ ماذا لو كان الأمر مجرد لعبة؟ ماذا... وماذا...؟

لم نعتد رؤية هذه الأجسام الحديدية بيننا، وعلى مسافة تشبه تجول البشر على

الأرصفة في المدينة الصغيرة، هنا حيث يسمح الوقت لنا بالاختباء في ظن السؤال وفي بلادة الجواب. هنا حيث يجب أن أغمض عيني عن كل الإجراءات المحتملة لوحوش تتكاثر وتنشطر مثل خلايا تتولد من موت بعضها، كما هي الحياة طبعاً، وكما هو قانون التطور المتوحش للطبيعة. وهذا صباح آخر، ونحن ما نزال نطير في البلد المقطّع الأوصال، المرصوف بالخوف. القدرة على ابتداع الرصاص والحب، القدرة بعد الآن على أي شيء... أي شيء، سوى الصمت.

البلاد التي تأسرني تفاصيلها في ابتداع خيوط شمس مخاتلة، أو سماع خشخشة أوراق الكينا، وأنا أمرّ تحت أشجارها العملاقة، وأتجه إلى شوارع دمشق، بينما فجأة تمر سيارة سوزوكي بيضاء، في صندوقها المفتوح ثلاثة رجال ملثمون، اثنان منهما يحملان رشاشات، ويطلقان الرصاص بعشوائية في الهواء.

البارحة كان إطلاق النار كثيفاً قرب البيت، وعلى الجهة المقابلة لطريق المطار جُرح رجلان، واليوم تمر السيارة البيضاء بسرعة. ليس غريباً أن يكون لونها أبيض، بلون الكفن. ليس غريباً أن أحاول سماع صوت خشخشة أوراق الكينا بعد الصمت المدوي، حيث يختفي المارة فجأة من الشوارع، ويصير المشهد مثل لوحة صامتة، اختفى الرجال المسلحون، وبقي الصمت والفراغ.

هكذا هي البلاد...

قطعة دانتيلا ممزقة، ونحن نطير بين الخيوط التي تفصلها عن بعضها بعضاً. نتطاير مثل جنيات نارية، نختفي ونظهر فجأة، ونحترق ونتهاوى بلا أسئلة.

اليوم، يظهر تقرير عن ناشطين حقوقيين، يقول أن معدل الاعتقالات يومياً لا يقل عن ٥٠٠ معتقل. طلاب يتظاهرون أمام كلية التجارة في دمشق، ويُعتقلون. تقطع الخطوط الهاتفية عن بلدة التل، بعد مداهمة رجال الأمن واعتقال ٨٠٠ شخص. تتحرك ٣٠ دبابة من منطقة يعفور باتجاه مدينة دمشق، مع ستّ ناقلات جنود. يستمر اقتحام البيوت والاعتقال في داريا. وفي بانياس يخرج آلاف المتظاهرين طلباً لفك حصار الجيش عن درعا.

هكذا هي البلاد...

سرقت طفولتي هذه الأيام. قالت لي: أفيقي يا بنت، فهذه ليست أرض «بيتر بان»، وعلى بعد كيلومترات منك، لن تستطيعي معرفة كيف تتقلص معدة طفل من قرقرة جوع، أو كيف يمكن لمدينة أن تُستباح!

٢٠١١/٥/١٠

هذا صباح غريب

أفيق وأنا أتلمس جلدي، كلي اعتقاد أني شخصية في رواية. أشرب قهوتي، وأفكر أني أفكر بامرأة سأكتب عنها. أنا رواية.

المضحك أني الآن هنا في بيتي المعلق على سطح مواجه لشارع «الحمرا» في قلب دمشق، أعيش بقلق وخوف، وألاحق ابنتي وكأنها بنت في الثانية من عمرها، خوفاً عليها من التهديدات التي كانت تصلني عبر الإيميل وعبر الهاتف.

ورغم أني التزمت الصمت الظاهر، لكنني خائفة، فأنا ابنة عائلة علوية معروفة، وموالية للنظام بشكل مطلق، وتعتبرني الآن خائنة وعاراً عليها، حتى أن البعض من أفراد العائلة كتبوا على الفيسبوك معلنين أنني لا أنتمي إليهم، وتبرأوا علانية مني. لم يكن هذا أول إعلان لهم، فأنا تركت بيتي منذ السادسة عشرة، وسببت لهم، حسب أعرافهم الاجتماعية، الفضائح المتكررة. أنا المنذورة لحرية غامضة في الحياة.

لم أهتم يوماً لهم. كانت عائلتي الصغيرة تعنيني، أخوتي وأمي وأبي، رغم خلافي المستمر معهم. فقد كنت أرتبط بهم بشكل عاطفي على نحو جعل الأمر أكثر تراجيدية ووجعاً. كان يكفيني أن أذكر تلك الأيام. عينا أمي تدمعان، وأغرق أنا في نوبة بكاء هستيرية.

أفكر أني رواية حقيقية، وأن شخوصها وسردها بحاجة لرحابة وعمق في البناء، فأستطيع التماسك والصلابة وأمسك خيوط حياتي أكثر. هكذا كانت الكتابة تعينني على مصاعب الحياة. هكذا كنت، لأني روائية، أستطيع أن أصير أكثر رحابة مع نفسي. وخيوط حياتي المتشابكة، صعبة الحل، كنت أدير عقدها كما أدير دمىً متحركة. لكن الفارق أنني كنت اللعبة والخيوط، واليد الغامضة الكبرى المجهولة.

أحاول التركيز في تلك الأيام العشرة التي كانوا يأتون فيها إلى بيتي، أربعة أو ثلاثة رجال، يقومون بوضع عصابة على عيني ونذهب إلى غرفة الضابط نفسها. لم أعرف إن كان هذا مكتبه فعلاً، وهل نحن في منطقة الجسر الأبيض في دمشق، أم في منطقة كفر سوسة. المسافة بدت مبهمة قبل أن أغير بيتي، وبعدئذ صارت السيارة تدور وتدور، ثم تتوقف، حتى أفقد تركيزي. في المرة الرابعة أيضاً أنزلوني إلى الزنازين، لم يعتقلوني، لم يضعوني في زنزانة، بل جعلوني أجول بين الزنازين. في يوم آخر سأكتب عن رحلاتي الجحيمية تلك.

سأحاول تذكر ما حدث بالتفصيل:

كيف كنت أنزل من البيت، كيف وضعوا العصابة على عيني حالما كنت أجلس في السيارة، وكيف يتحول العالم حينها إلى جحيم أسود. تلك اللحظات التي أعانت روحي على الصمت وأنا محشورة بين جسدين غريبين، أشم روائحها، واشعر بذعر إضافي.

العصابة حول عيني، وأنا أتخيل أني أدخل في العمى قسراً، الدخول في العمى، وانتظار أيدٍ تتحرك حولي، كنت أستعين بحالات قرأت عنها، وأفلام مرّت أمامي، عن السواد المطلق للعين. في إحدى المرات، وأعرف أني فقدت تركيزي، فكرت أن العمى هو نافذة لتغلق الخارج، وهي باب سري للدخول في عتمة النور. هي فرصة للتأمل في أعماق النفس، لذلك يصير العميان أنصاف فلاسفة.

هكذا كنت أحارب العصابة السوداء حول عيني. أعاملها بازدراء. أفترض أني شخصية من ورق، ولست من لحم ودم، وأني أنا من يقرأ الآن عن امرأة معصوبة العينين، تُقاد قسراً لمكان مجهول، لتُلعن ويُبصق عليها، لأنها تجرأت وكتبت شيئاً عن الحقيقة لم تعجب رجال الطاغية. وعند نقطة الخيال هذه، أشعر بالقوّة، وأنسى ضعف جسدي، والروائح الكريهة، وكلّ المجهول القادم.

مقتطفات من كتاب بعنوان «تقاطع نيران: يوميات الانتفاضة السورية» يصدر قريباً